المرحلة الأولى من الهجرة :

من الأمور المستحيلة إعداد تقويم زمني دقيق لموجات هذه الهجرة أو مخطط تفصيلي للطرق التي سلكها الغجر خلال رحيلهم من الهند، إنما يعتمد الباحثون بشكل رئيسي على نتائج الدراسات اللغوية، وعلى تطور لغة الغجر، ومؤشرات البيئة الاقتصادية والثقافية الأجنبية في انعكاسها على مفردات لغوية معينة وعلى التغيرات التي تطرأ على اللغة، فهذه ـ فقط ـ يمكنها أن تحدد الطرق الرئيسية للهجرة ومراحلها .

وغالبية اللغويين يتفقون على أن لغة الغجر بدأت في القرن السادس أو السابع، في حين أنها حتى القرنين الثامن والتاسع فصاعدا نمت كلغة مستقلة في ظل تأثير لسان الأغلبية السائد في البلاد (الفارسية ـ الأرمنية ـ اليونانية) وقد تجولوا لقرون عديدة عبر الأرض المعروفة اليوم بباكستان وأفغانستان وإيران وحتى جنوب بحر قزوين، وقد انقسم الغجر ولغاتهم إلى فرعين منفصلين (متحدثين باللهجتين المسميّين "بِن وفِن" على الترتيب بناء على تصنيف كلمة " أخت " لديهم) . وهذا يحدد مرحلة هامة في تطور لغتهم ومجتمعهم ككل، وحال وصولهم إلى شمال أرض العراق " ميزوبوتاميا " وإلى

الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية مع نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر، انقسم الغجر إلى ثلاث موجات للهجرة، وهى مجموعة " الروم " الناطق بلهجة " البِن " التي اتخذت الطريق الجنوبي أو استقرت في الشرق الأوسط ــ ومجموعتان ناطقتان بلهجة " الفن" هما " اللوم " ــ التي استخدمت الطريق الشمالي، " والروم " التي اتخذت الطريق الغربي ويممت المجموعة الأولى تجاه الجنوب الغربي واستقرت بالتدريج في سوريا وفلسطين ومنها شقت مجموعة طريقها إلى مصر وشمال إفريقيا، ومن المفهوم هكذا ــ أنه خلال فترة السيادة العربية لشبة جزيرة ايبريا ــ اسبانيا ــ أن الغجر الراحلين من هذه المجموعة ووصلوا المنطقة من خلال الطريق المسمى " بشمال إفريقيا " قد اختلطوا مع مجموعات الغجر التي وصلت اسبانيا من الشمال، رغم أن معظم الكتاب يدحضون فكرة هذا الطريق لهجرة الغجر ــ وتوجهت المجموعة الثانية نحو الشمال واستقرت في البلاد الواقعة جنوب القوقاز ــ وتمثلها أساسا أرمينيا وجورجيا الآن ــ ووفقا لبعض الفروض انتقلت أقسام من تلك المجموعات إلى مناطق أبعد عبر الطريق الشمالي (خلال جبال القوقاز والشواطئ الشمالية للبحر الأسود) حتى وصلوا إلى ارض رومانيا الحالية وأرض البلقان ووسط وغرب

أوربا، لكن اغلب الباحثين يشكّون في هذا الطريق بسبب نقص الدلائل التاريخية واللغوية على ذلك في حين قصدت المجموعة الثالثة ــ وهى أكبر المجموعات والناطقة بلهجة الفن ــ والمسماة مجموعة الروم الطريق الغربي نحو أسيا الصغرى وبلاد البلقان، ومنها تحركت إلى وسط وغرب أوروبا، وقد استقر أولئك الغجر لقرون عديدة ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية بصورة شبه دائمة والتي شملت ــ في ذلك الوقت ــ مناطق شاسعة من آسيا الصغرى والبلقان

- وصول الغجر إلى إقليم البلقان :

يعود الدليل المبكر الموثوق به فيما يتعلق بوجود الغجر في منطقة البلقان إلى عصر الإمبراطورية البيزنطية والأكثر دقة يعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر، وقد قبل معظم خبراء الموضوع حتى وقتنا الحاضر نظرية عالم اللغة المعروف فرانز ميكلوسيتش بأن أول ذكر محدد لوجود الغجر في ظل بيزنطة جاء في كتاب " حياة القديس جورج الأثوسى " وهو قديس مات عام ١٠٦٥، وقد كُتبتْ سيرته حوالي العام ١١٠٠م، حيث تقول أن في عام ١٠٥٤ خلال حكم الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس، قد وصل إلى القسطنطينية العديد من قبائل الغجر " الشرقيين

" قادمين من منطقة ساماريا، وليس لهم أعمال ثابتة، يتجولون حول المدينة، وقد اشتهروا بمهارات الاستبصار " التنجيم " والأعمال السحرية . وخلال هذا العصر اخترقت الحيوانات المتوحشة حدائق الإمبراطورية ولهذا طلب الإمبراطور من الغجر أن يخلصوه من تلك الحيوانات، فقدم الغجر لحما مسموما لها فماتت . هنا دعاهم الإمبراطور - متأثرا بفاعلية سحرهم ــ لدخول قصره وطلب منهم تكرار عملهم السحري بتطبيقه على كلبه . إلا أن القديس جورج الاثوسى - الذي كان حاضرا المشهد- قام برسم علامة الصليب على اللحم المسموم وهكذا تم إنقاذ الكلب في حين قام الإمبراطور بطرد الغجر من القصر .

وتميل غالبية الخبراء في هذا المجال إلى قبول التفسير الذي يحيل الاسم تسيجانى " TSigani" ــ ومشتقاته الصوتية والذي أُطلق على الغجر في أوربا الشرقية ــ إلى كلمات من قبل اتسنجانى ATSINGANI او اتسنكانى ATSIN KANI وكلاهما قد ذكر في المصادر التاريخية لتلك الفترة، وهناك كذلك نظريات معارضة حول أصل ذلك الاسم تقول انه مشتق ــ مثلا ــ من كلمة اسينكار ASINKAR والتي تعنى الحدّاد في بعض اللهجات الفارسية، أو من مصطلح استخدم خلال القرن العاشر في بيزنطة من اسم نهر أسطورى في الهند موطن الغجر، أو من

الاسم الموسيقى travelling cingari وتعنى الراقص أو الموسيقى الجوال في الهند، أو هو مأخوذ مباشرة من الكلمة اليونانية في العصور الوسطى اتسنجانوى ATSINKANOI وتعنى الذي لايُلمس، وعموما فالمشكلة الحقيقية تكمن في سؤال آخر، هو ماذا تعنى كلمة اتسنجانى أو اتسنكانى؟ وهو سؤال لم يحظ بعد بإجابة محددة، وبسبب الطبيعة الملتبسة والمتشظية للمصادر التاريخية لهذه الفترة، أصبح من المعتاد الظن بأن هذا الاسم يشير إلى المانويين أو إلى الهراطقة المتورطين بأعمال التنجيم وقراءة الكف والسحر والنفث وبالتالي انتقل الاسم ـ بسبب ممارساتهم الشبيهة ـ إلى أجداد أولئك الغجر .

ويعتقد باحثو العهد البيزنطي والمعاصرون ـ منهم بول سبيك على سبيل المثال ـ أن مصطلح اتسنجانى كان يستخدم دائما في المصادر البيزنطية للإشارة إلى الغجر، ويحدد ذلك التفسير الجديد لمادة المصدر في زمن اختراق الغجر لحدود الإمبراطورية البيزنطية في وقت أكثر تبكيرا مدعما بعدد من أبحاث اللغويين المحدثين وفى العهد البيزنطي نجد مصطلح الغجر " الاتسنجانى " مذكورا في مدينة اموريون بإقليم فريجيا في تقويم " ثيوفانيس المعترف " الذي كُتب حوالي عام ٨٠٠ للميلاد، وفيه نجد تقريرا مفصلا ـ كذلك ـ عن الصداقة

الحميمة بين الإمبراطور البيزنطي نيكوفوروس الأول جينيك_وبين المانويين الذين يسمون الآن بالبافيليكيانيون بالإضافة إلى الغجر الذين يعيشون في فريجيا وليكونيا وتحديدا يُشار للمجموعتين من الغجر الاتسنجانى والبافيليكيانى كمجموعتين مختلفتين، فالأخيرة ساعدت الإمبراطور بمعرفتهم للسحر حين أخمدوا تمردا ثار ضده عام ٨٠٣ م لذلك سمح لهم الإمبراطور بالتنقل بحرية عبر إمبراطوريته، وقد اختار بعضهم الاستقرار في منطقة ثراس .

اعتقد بعض المؤرخين أن الغجر استقروا في مدينة فيلبوبوليس وما حولها (مدينة بلوفيديف الحالية) على السهول الثراسية، ومنذ النصف الأول للقرن العشرين ربط بعض الكتاب البلغاريين ـ مثل نادين شيتانوف) بين استقرار غجر الاتسنجانى في ثراس بين ٨٠٣ م إلي ٩٠٤م بوصول الغجر للمنطقة ولكن ذلك التاريخ البعيد لوصولهم لم يأخذه اغلب الباحثين بعين الاعتبار حتى الوقت الحاضر، والغجر في بلغاريا ـ بوجه عام ـ يتقبلون ذلك التاريخ المبكر، ويستعرضونه في إطار محتوى أحداث أخرى في التاريخ البلغاري، ومنها على سبيل المثال أسطورة ـ رغم رجوعها إلى أزمنة أكثر حداثة ـ معروفة بين الغجر في بلغاريا تقول أن الغجر كانوا الحدّادين الذين ائتمنهم الخان البلغاري " كاروم " لطلاء جمجمة الإمبراطور

نيكوفوروس الأول جنيك بالفضة، وكان قد قُتل عام ٨١١م في معركة فيربشكى باس، ووفقا للأسطورة الوطنية البلغارية تحولت الجمجمة إلى كأس يتبادل الخان بها الأنخاب مع جنوده .

والدليل الثاني الأقدم فيما يتعلق بالغجر " الاتسنجانى " يأتي من السيرة الذاتية للقديسة اتاناشا من جزيرة ايجينا التي عاشت في القرن التاسع، ففي قصة حياتها وصف عن كيف كانت توزع الطعام ــ خلال فترة من فترات المجاعة ــ على غرباء يدعون الاتسنجانى.

وكانت اتجاهات أباطرة بيزنطة نحو الاتسنجانى في تلك العهود غير ثابتة أو مستقرة، ووفقا لما ذكره ثيوفانيس المعترف، قام الإمبراطور ميشيل الأول رانجيف بتوقيع عقوبة الإعدام على المانويين الهراطقة ــ لفترة قصيرة من الزمن ــ والمعروفين الآن باسم البافليكيانى وباسم الاتسنجارى من فيرجيا وليكونيا، ولكن مع ارتقاء الإمبراطور ميشيل الثاني العرش تغير الوضع تماما . وبناءا على معلومات تفصيلية قدمها ثيوفانيس كونتناوتوس، أن الإمبراطور ميشيل الثاني نفسه جاء من مدينة اموريون في فريجيا حيث تواجد العديد من اليهود والغجر الاتسنجانى وقد التزم بهرطقتهم الدينية التي " ورثها عن أسلافه"، وكانت تلك الهرطقة خليطا من المعتقدات لدى الجماعتين، ووفقا لثيوفانيس، كان أفراد

الاتسنجانى يُعّمدون ولكن في بقية العبادات الأخرى اعتبروهم مثل اليهود عدا أنهم كانوا لايختتنون، وقد انشغل ميشيل الصغير " الثاني " بتربية قطعان الماشية في مبدأ الأمر ثم أصبح فيما بعد جنديا من جنود الحظ الحسن إذ تنبأ له احد أفراد الغجر من الاتسنجانى بأنه سوف يكون إمبراطورا مما دفع الإمبراطور لمعاملتهم معاملة حسنة فيما بعد ووفقا لبعض المصادر الأخرى ـ رغم أنها تعود لزمن متأخر ـ جاءت موجة ثانية لكتلة كبيرة من المهاجرين البافليكيان والاتسنجانى من إقليم انتيوك واستقروا مرة ثانية في منطقة فيليبوبوليس وحدث ذلك عام ٩٦٩ في ظل حكم الإمبراطور جون الأول تزيمسكيس، وتم تنظيمها بواسطة بطريرك إقليم انتيوك ؛ تيودور موناك . وبناءا على ماذكره مايتى كوبيتار احد حملة الأقلام السلافيين في القرن التاسع عشر حول قدوم القبائل المرتحلة المسماة " سيجانى " في خطاب أرسله الأسقف ثيو فلاكت الاوهريدى إلى الإمبراطور اليكسيوس الأول كومينوس (مع نهاية القرن الحادي عشر أو بداية الثاني عشر) وتعد هذه إشارة للغجر .

- الغجر فى ظل الامبراطورية البيزنطية :

نستطيع من خلال المصادر المتأخرة أن نؤكد انه فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، كان كلمة اتسنجانى تشير تحديدا لأجداد الغجر، وهناك مجموعة لها وزنها من الأدلة تدعم هذا الاعتقاد، رغم وجود بعض المواد التى تناقض ذلك إلا أنها ليست دائما مستندة على سجلات تاريخية صحيحة فعلى سبيل المثال، يذكر تيودور بال سامون ــ مشرع الكنيسة البيزنطية في القرن الثاني عشر ــ أن الاتسنجانى كانوا يحملون ثعابين ملفوفة حول أجسامهم ويقومون بقراءة طوالع الناس" قراءة البخت "، بالإضافة لوجود خطاب دوري من بطريرك القسطنطينية اناستازيوس الأول يعود إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر يحذر بشأن الوفاء والإخلاص لتعليمات الكنيسة فيما يتعلق بعدم قبولها لأية اتصالات أو علاقات مع سحرة الثعابين وبالسحرة عموما وبالمنجمين ومدربي الدببة ومن هم مثل ذلك، مع تحذير خاص من الاتسنجانى الذين لايجب إئتمانهم أو إدخالهم المنازل لأنهم يتعبدون بأمور شيطانية وهذا ما أكده جوزيف برينيوس ــ الذي كتب في منتصف القرن الرابع عشر ــ ملاحظا أن الناس في ظل الإمبراطورية البيزنطية كانوا يختلطون يوميا بالسحرة والمنجمين والاتسنجانى والمشعوذين، والمصطلح " اتسنجانى " يستخدم كتعبير على الاهانة في قصيدتين ساخرتين في

العصر البيزنطي من القرن الرابع عشر، وتمدنا بعض الوثائق من أوربا الغربية ببرهان اقوي حول وجود الغجر في البلقان، يذكر الراهب الفرانسيسكانى سيميون سيميونز عام ١٣٢٢ م بعضا من العبيد المجلوبين من بلاد الدانوب، قال انه رأى أشباههم في مصر ــ سودا كالهنود ــ لكن بوجوه تمتلئ بالوشم كما يلاحظ نفس المؤلف مجموعة يطلق عليها "أخلاف الهام" كان قد التقى بهم في جزيرة كريت، يعيشون في خيام سوداء وكهوف ولا يستقرون في مكان واحد أكثر من ثلاثين يوما وتذكر وثيقة كتبها احد الحجاج من منطقة كولونيا بألمانيا ــ كان مسافرا إلى القبر المقدس عام ١٣٤٠ اسمه ماندوبولى - قوماً لاحظ الكاتب وجودهم أثناء مروره بأرض موريا (اليونان حاليا) يتكلمون لغة خاصة بهم لايفهمها غيرهم، وقد وجد اسم مشابه هو ماندو بولين في وثيقة وصف لبولوبونيزيا كتبها لودولفوس السوتيمى عام ١٣٢٠ م، وفى نسخة لقصة حياة القديس باربارروس من القرن الرابع عشر تذكر كلمة المصريين EGYPTIANS باعتبارهم يعيشون على طوال الساحل االألبانى في إقليم ديراكيوم، ومن المقبول أن تكون كل تلك الإشارات أو على الأقل معظمها عائدة إلى الغجر الذين يقيمون بمنطقة البلقان .

فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر انتشر استخدام الكلمتين المتمايزتين اتسنجانى والمصريين، مع وجود تمّيز واضح بين المجتمعين، فعلى سبيل المثال في سجلات جريجوريوس كيبريوس الثاني بطريرك القسطنطينية، ذُكِرتْ ضرائب خاصة كان يجب جمعها من [المُسمون مصريين وغجر اتسينجانى] بالإضافة إلى توكيل لجمع تلك الضرائب ،حيث يقوم جامعو الضرائب "الموكلون" بدفع نسبة من جملة الضرائب المطلوبة مقدما ثم يستردون المبلغ كله من دافعي الضرائب واغلب المصادر المنتمية لتلك الفترة تستخدم اسما واحدا فقط من الاثنين (المصريين ـ أو الغجر) وكمثال جاء ذكر اسم الأرملة "آنا" التي تعيش في ارض دير زيرو بوتامو على جبل اثوس مرتبطا باسم زوجها الجديد " المصري "، كما يذكر اسم نيكولاس المصري الذي يعيش على ارض دير لارفا .

وتعد تلك الوثائق قطعاً فريدة لأنها توضح أنه منذ ذلك التاريخ فصاعدا بدأ تصنيف المصريين ضمن فئة من قن الأرض " الباريكى " في النظام الإقطاعى التابع لبيزنطة كما يأتي ذكر " المصريين " كذلك فى وثائق نوموكانون البيزنطية التي تَحَرِم كلَ من يطلب من النساء المصريات قراءة طالعه من تناول الخبز المقدس لمدة خمس سنوات أو يدعو

أولئك النسوة لممارسة السحر داخل منازلهم لشفاء مريض أو ماأشبه وفى عام ١٤١٥ م جاء ذكر المصريين الذين أقاموا لفترة طويلة في منطقة البيلوبونيز .

وقد أصبح اسم " المصريين " شائعا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويربط معظم الكتاب بين أصل الكلمة وبين إقليم يعرف باسم " مصر الصغيرة " ويرى اغلب الباحثين أن "مصر الصغيرة" هذه هي جزء من ارض البيلوبونير رغم وجود نظريات أخرى مثل أن مصر الصغيرة " هي أزمير الحديثة في أسيا الصغرى أو المنطقة المحيطة بإقليم انتيوك (وهى الأناضول انتاليا في تركيا الحديثة) ومن المحتمل أن الأساطير التي تدعى أن الغجر كانوا ملوكا " لمصر الصغيرة " قد نشأت في تلك الفترة وهى نفس الأساطير التي تقول أن الغجر تكاثروا عبر وصولهم لغرب أوربا في القرن الخامس عشر .

ونحن أحيانا مانجد في مصادر القرن الرابع عشر أسماء أخرى ومنها على سبيل المثال القصيدة الساخرة " فلسفة السكران " الثمل "؟! وهى تذكر أولئك المدعون كاتسيفيلوس ــ أىّ صناع المَنَاخل ــ وهى كلمة مازالت تستخدم في اليونان الحديثة للإشارة إلى الغجر . ونجد نفس المصطلح في فرمان عام ١٣٥٠م الصادر عن الإمبراطور جون باليولوجوس الخامس الذي

يؤكد ملكية الأرض لأحد النبلاء ومع هذه الملكية ملكية الأقنان على نفس الأرض وكان بعضهم يسمى ايجيبتو كاتسيفيلوس " الغجر المصريون"بالمصريين صانعو المناخل ؟ خلال القرن الرابع عشر في مقاطعة البندقية بإقليم البلوبونير والاراضى الأيونية، في بعض ممارسات إدارية معينة مثل منح حق امتيازات ضرائبية أو حق الحكم الذاتي لجماعات الغجر (وهى ممارسات انتشرت نوعا ما مع دخول الغجر لأوربا الغربية) فعلا ففي عام ١٤٤٤ أعادت السلطات في مدينة نوبليا ــ بالبندقة في شرق إقليم البيلوبونيز تأكيد الامتيازات التي اكتسبها أحفاد يوحنا سنجانوس الذي كان قائدا للغجر .

كان الحجاج المتوجهون لزيارة قبر المسيح ــ عليه السلام ــ يذكرون اسم غجر مدينة " مودون " بشكل متكرر وهى على الساحل الغربي لإقليم البيلوبونيز، ويأتي أقدم دليل في هذا الشأن عام ١٣٨٤ م من ليوناردو دى نيكولو فريسكوبا لدى الذي كتب عن " روميتى " الذين يعيشون خارج أسوار المدينة، وبعد قرن أى عام ١٤٨٣م ووفقا لكتابات برناردفون بريدنيباخ كان هناك حوالى٣٠٠ أسرة يعيشون في أكواخ بائسة وهم فقراء وسود البشرة كالإثيوبيين بالقرب من المدينة، في حين يضيف بعض الرحالة إلى ذلك قولهم بأن أولئك

الناس كانوا حدّادين، كما أن هناك وثائق من جزيرة كورفو اولما تعود إلى عام ١٣٧٥ م وأعيد تأكيدها عام ١٣٨٦ م ولعدة مرات خلال القرون التالية تصنف جماعة الغجر بأنهم غجر الأرض وذلك تأسيسا على منهج محدد، يشمل الغجر الذين يعملون كحدادين وصُناع قدور ومزارعين والذين في ظل شروط الوثيقة تم إعفاؤهم من دفع الضرائب والالتزامات الأخرى ـ وهم مسئولون فقط أمام زعيمهم (وهو بلقب بارون وكان أولهم اللو سياسى دى سيترو) الذي بدوره كان قد جمع منهم العديد من الأموال وما إلى ذلك .

بفصل هذين المصطلحين " اتسنجانى " و " مصريين " المستخدمين في سجلات هذه الفترة، يمكن للمرء محاولة التمييز بين موجات هجرة الغجر إلى اثنتين هاجرتا إلى البلقان ومنها إلى أوربا، إذ يتضح أن هناك موجتان رئيسيتان للهجرة كفرضية مجردة ،في الأولى ــ التي ربما تكون الأقدم- انتقل الاتسنجانى من القسطنطينية باتجاه أراضى بلغاريا، وصربيا ومولدافيا وفالاشيا، وفى الثانية ــ المدعوة بالمصريين ــ تحركت الموجة عبر مصر الصغيرة ـ أينما تكون تلك الأرض والتي يبدو أنها كانت بإقليم البيلوبونيز ـ ووصلت فيما بعد إلى أراضى البلقان، وأحفاد جماعة تلك الموجة هم من شكلوا المجتمعات التي اشتق اسمها من

اسم المصريين ومنها [اوجوبتى في بلغاريا، وايجببتس في مقدونيا، وايفجى في ألبانيا وجيفتى في اليونان] وقد فقدت تلك المجتمعات لغتها الأصلية وأصبحت منفصلة تماما عن بقية الغجر في بلاد البلقان، وسوف يتولى الزمن أو اكتشاف مصادر تاريخية جديدة أو إعادة فحص وتدقيق المصادر الشائعة أمر إيضاح مدى صدق التمييز بين موجات الهجرة تلك إلى منطقة البلقان.

الغجر فى ولايات البلقان :

هناك دليل على دخول الغجر أراضى البلقان وولاياتها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لكن بعضا من هذا الدليل يأتي متناقضا، فوفقا لتقويم نيكوفوروس جريجورا وصلت مجموعة من لاعبي الأكروبات إلى القسطنطينية من مصر مع بداية القرن الرابع عشر (خلال حكم الإمبراطور اندرونيكوس الثاني) بعد رحلة طويلة من الشرق الأدنى وقد زار أعضاء تلك المجموعة بلاط العديد من الحكام المحليين في ثراس ومقدونيا وأراضى صربيا وقد قدموا عروضهم لملك صربيا فيما بعد (ستيفان ديشانكى) ثم وصلوا حتى اسبانيا بالتدريج ويذكر الباحث في الشئون البيزنطية جورج سوليس أن مجموعة اللاعبين تلك كانت من الغجر إذ يذكر سجل مدينة راجوزا لعام ١٣٦٢

م اسم اثنين من الإخوة مصريين[1] هما فلاهو وفيتان اللذان كانا يضعان الشرائط الجلدية المفضضة والتي تم إيداع بعضها كرهن لدى حدّاد محلى مقابل قرض، وقد جاء ذكر الغجر " تسيجانى " في مدينة زغرب لأول مرة عام ١٣٧٣م ثم مرة ثانية عام ١٣٧٨، ثم في ليوبليانا عام ١٣٨٧ م، في حين تم تسجيل عشرات من الغجر في زغرب بين أعوام ١٣٨٧ و ١٣٩٧ كجزارين وتُجّار بشكل أساسي وغالبا ما كانوا يَمْثلون أمام المحاكم لعدم سداد قروضهم، والغجر يُذكرون ـ عامة ـ في الوثائق منذ القرن الخامس عشر (الموسيقيون وصغار التجار بصفة أساسية) وخاصة وثيقة عام ١٣٤٣م التي تذكر قوم الراديكو تسيجانى في البوسنة باعتبارهم مدينين لتجار من راجوزا وفى عام ١٣٤٨ م أصدر ملك صربيا ستيفان دوشان هيثاما تحديدا لعدد الضرائب الواجب دفعها بواسطة "لسنجارى" الذين كانوا يعملون صناعا لحداوى الخيول وسروجها ثم وهبهم مع ملكياتهم وقراهم إلى دير الأسقفين ميشيل وجابريل بمدينة بريزن، ويعتقد بعض المؤلفين أن جماعة " السنجارى " الذين قدمهم الملك الصربي ميلوتين لدير هيليان داريو الواقع على جبل اثوس عام ١٢٩٠ كانوا أيضا من الغجر لكن اغلب المؤرخين الصرب ـ والذين يتبعون خطى فرانز ميكلوسيتش ـ لايقبلون هذا الدليل

علـى وجـود الغجـر فـي الأراضـي الصـربية مفسرين هذه المفردات بصورة مختلفة على أنهم مجرد " صانعي أحذية " وعلى أية حال، لاشك أن الغجر كانوا قد دخلوا مناطق البلقان خلال هذه الفترة، وهو ما تم تأكيده بواسطة أدلة معاصرة، ووفقا لبعض الأساطير التي سجلت في عصور لاحقة فأن ابن حاكم ألبانيا ليك دوكاجين كان قد قتل بواسطة بعض الغجر في منطقة مونتنجرو في القرن الرابع عشر، بينما رفض ليك الانتقام من كل الغجر الذين يعيشون فوق أرضه لأن " المرء لا يشترى رغيفين من الخبز، مقابل قطعة نقدية ضئيلة، ومقابل دماء أُريقتْ بالفعل ليس لدنيا حاجة لإراقة المزيد منها، ملتزما بالقاعدة العرفية للثأر، هي الدم مقابل الدم، ورجل مقابل رجل بدلا من معاقبة جموع الغجر" ،ومن المحال أن يتأكد المرء من تاريخ أول اتصال تم بين شعب البلغار وقبائل الغجر بصورة نهائية ، أو زمن الدخول المبكر الذي قام به الغجر في الأراضي التي كان يحتلها البلغار، أو حتى متى بدءوا الاستقرار في الأراضي البلغارية بصورة دائمة، إذ أدى الكلام المتكرر بنصوص ميثاق ريلا (١٣٨٧ ن) الذي أصدره القيصر ايفان شيشمان إلى الكثير من سوء الفهم، حيث يشير النص إلى منطقة تعرف باسم " اجوبوفى كليتى " وهى التي غالبا ما كان الباحثون البلغار و الدوليون

يربطونهـا بوجـود الغجـر [مفسـرين هـذا المصطلح بكلمتـي " ايجيـوبتى كليتـى " والتـي تعنى الغجر الفقراء] رغم أن النص لايفيد هذا، بل كل ما يشير إليه هو تلك المحال الموسمية للرعاة في الجبال ورغم الافتقار إلى دليل، إلا انه يمكن التأكيد أن استقرار الكتلة الكبرى من الغجر في الأراضي البلغارية قد حدث فيما بين القـرنين الثالـث عشـر والرابـع عشـر، وهـذا الغرض يسمح بوجود اتصال واستقرار مبكرا عن ذلك، ومثال لذلك تلك الهجرة المذكورة سابقا عن " الاتسنجانى " إلى منطقة " ثراس" في بداية القرن التاسع وهذه الثقة نابعة من تلك الوثائق المتعددة التي تسجل وجود الغجر في الدولـة البيزنطيـة بالإضـافة إلـى تقدمهم باتجاه صربيا و مولدافيا وفالاشيا، اخذين في الاعتبار الموقع الجغرافي لبلغاريا، ويبدو الفرض القائل باستقرار ــ أو على الأقل عبور ــ الغجر في الأراضـي البلغاريـة خـلال تلك الفتـرة منطقيـا، بالإضـافة إلـى وجود دليل من القرنين الخامس عشر والسادس عشر يفيد بأن الغجر المسيحيين فاقوا الغجر المسلمين عددا في أراضى بلغاريا دالة على أن غالبية الغجر قد استقرت هناك فيما قبـل الغـزو العثمـاني واسـتيعاب بلغاريـا وسـط الإمبراطوريـة العثمانيـة ومـن نفس هذه الفتـرة الزمنية، لدينا الدليل الأقدم على وجود الغجر فـي المنـاطق المحليـة لمولـدافيا وفالاشيا شـمالي

نهر الدانوب، رغم أن وضعهم هناك كان مختلفا جدا عن بقية ولايات البلقان ،ووفقا للأسطورة ــ المنتشرة أيضا في الأدبيات الأكاديمية ــ نعلم أن أمير مولدافيا اليكساندر الأول هو الذي قام بدعوة الغجر، واصدر فرمانا خاصا يضمن لهم أرضا وهواء ليعيشوا عليها وحديدا ونارا، للعمل بهما، وقد ذكر ذلك الفرمان المؤرخ ميشيل كوجالينسينو دون أن يشترك معه أي احد أخر في رؤية النص الأصلي للفرمان، وتشك غالبية المؤرخين في وجود ذلك القرار ويشاركهم ذلك الرأي المؤرخين الرومانيين .

وما هو مؤكد ــ على كل ــ أن دخول الجمهرة الكبرى من الغجر إلى أرض مولدافيا وفالاشيا ارتبط بتقديمهم إلى الأديرة كعبيد، إذ انتشرت في ذلك الوقت عادة تقديم الأرض بما عليها من بشر " من فلاحين وحرفيين وعبيد " إلى الأديرة بواسطة الحكام والأثرياء هناك، فعلى سبيل المثال، قام نبلاء صربيا عام ١٣٤٠ م بإهداء عدد من العائلات الغجرية إلى دير العذراء المقدسة في تسمانا في إقليم كارباثيا، وفى عام ١٣٦٠ م قدم الزعيم فلادسيلاف مجموعة من الأسرات الغجرية لدير القديس انتونى بمدينة فورتيشى، وفى عام ١٣٨٥ م قام ابن أخته دان الأول حاكم وسيد كل أراضى انجروا ــ فالاشيا بتقديم أربعين أسرة

غجرية لدير العذراء المقدسة في تسمانا، وفى عام ١٣٨٧ م أكد وريثه جون مرسيا هذه الهبة ومنح الدير في جوزيا ٣٠٠ أسرة من الغجر، ووفقا للخطاب الامبراطورى " لكريسبول " عام ١٤٢٨ م قدم أمير مولدافيا اليكساندر الطيب هدية مماثلة للدير فى بيستريا وهكذا ... وبهذا الأسلوب وبالتدريج تطور نظام شرعي كبير في هذين الإقليمين المحليين، شملَ الغجر "الاتسينجانى " بحالة معقدة من العبودية سنطرحها للمناقشة أجلا .

- الغجر عشية الغزو العثماني .

من الواضح الجلي أن هناك عديدا من الثغرات في سلسلة تاريخ وجود الغجر في بلاد البلقان، بالإضافة لعدد من الأسئلة التي لاتجد إجابات حاسمة لها، والحلول المفترضة ــ هنا ــ هي مجرد افتراضات حتى الآن ــ وعلى أية حال فمن الظاهر تماما انه عندما بدأ الغزو العثماني للبلقان خلال القرن الرابع عشر، كان هناك غجر موجودون بالفعل عاشوا بالإقليم لفترة غير قليلة ، وقد حدث التوافق في معيشة الغجر وسط شعب البلقان بطرق مختلفة كجماعات من الرُحّل والممثلين المتنقلين أو كحرفيين بالمدن أو تجار، وفى إطار هذا المعنى يمكن اعتبار مفهوم العبودية كشكل من أشكال التوافق داخل المجتمع، وعلى أية حال

فقد توافق الغجر مع الحياة الاجتماعية والثقافية للإقليم حتى ولو كان ذلك ــ أحيانا- بأساليب غير معتادة .

وعلى المرء أن يؤكد عدم وجود مشاعر مباشرة بالعداء تجاه الغجر في البلقان ــ إذا ما نحيّنا جانباً ذلك الشكل المحدد من العبودية الذي تواجد في مولدافيا وفالاشيا حيث كان ذلك وضعا فريدا في تاريخ الغجر ــ مثل تلك المشاعر التي شاعت بين أفراد المجتمعات المحلية في غرب أوربا تجاههم في العصور التالية، فالمصادر ــ رغم تأثرها ــ تسفر عن اتجاهات سلبية مشوبة بالاحتقار تجاه الغجر لكن ذلك لم يتحول إلى ملاحقات نمطية تقوم بها السلطات الدينية أو المدنية لهم، ولم يتم هذا الاضطهاد دون وجود حالات مماثلة في أماكن أخرى لكن يمكن تفسيرها وفقا لطبيعة الإمبراطورية البيزنطية وطبيعة ولايات البلقان التي كانت مرتبطة ثقافيا وتاريخيا بتلك التوجهات، فالمنطقة كانت خليطا من شعوب مختلفة حيث تعد مطاردة الآخر استثناءً لاقاعدة .